4

جاكسون، ومراقبة التسلح، والهجرة اليهودية

مراقبة التسلح

عندمـا تسلم نيكسون الرئاسة، كان أبعد مـا يكون عن الحد من التسلح. واعتبره مجرد ورقة مساومة تستخـدم للمساعـدة على إخراج الولايـات المتحدة من فيتنـام[1]. وماطل في البـدء بالمفاوضات ليرى التنازلات السياسية التي يمكن انتزاعها من موسكو.

ثمة ثلاثة اعتبارات أقنعت نيكسون بالبدء بالمفاوضات في 3ت2 (نوفمبر) عام 1969 أولها التعويض عن موقفه الصارم عموماً في فيتنام، والدفاع عن الشرق الأوسط، وغيرها من المسائل، حيث كان بعض الاستعداد الملموس لالتزام إدارته بالسلام ضرورياً. ولهذا أعلن نيكسون عن البدء بالمفاوضات في خطبة لـه ساعياً إلى حشد التأييد لسياسته في فيتنـام. والاعتبار الثاني هو أن ضغوط الكونغرس على الميزانية الدفاعية حوّلت البنتاغون ـ لفترة سريعة الزوال ـ إلى مؤيد لتخفيضات مشتركة للتسلح. والاعتبار الثالث أن نيكسون بات مهتماً بموضوع بناء السوفييت لقوات استراتيجية، والتي كانت تتزايد بمعدل مائتي صاروخ في السنة، في حين كان الكونغرس يحول دون أي جهد لتعزيز قواتنا الاستراتيجية.

بـدء المفاوضات وضعنا وجهـاً لوجه أمام مشكلة كيف نحدد المساواة. ذلـك أن القوات النووية لكلا الطرفيـن قـد بنيت على أساس تقنيات ومفاهيم أمنية مختلفة. في الستينات، وقبل اتفاقية «سالت» كانت الولايات المتحدة قد توقفت باختيارها عن بناء صواريخ إضافية عابرة للقارات، وركزت على التحسينات النوعيـة للرؤوس المتعـددة بدلاً من ذلـك واعتمدت الولايات المتحـدة عدا ذلك علـى القاذفات بعيدة المدى، التي لم يكن لدى السوفييت نظير حديث لها، بالإضافة إلى القواعد الجوية المنتشرة عبر البحار وحاملات الطائرات.

اتخـذ الاتحاد السوفييتي من جانبه، فـي أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية، برنامجـاً واسعاً للصواريخ الأرضيـة، والصواريـخ التي تنطلق مـن الغواصات، والتي بـدأت منذ السبعينات تتجاوز عـدد الصواريخ الأمريكية. ومع هذا بقيت الولايات المتحدة تمتلك من الرؤوس النووية ما معدله 3 إلى واحد بسبب تقدمنا فـي الرؤوس المتعددة للصواريخ طـوال فترة السبعينات بالإضافة إلى تقدم عـددي وافر في الثمانينات.

ذلـك التقدم سـوف يتراجع بالتدريج لأن السوفييـت وضعوا رؤوساً متعددة علـى صواريخهم. وفي أواخر الثمانينـات وضـع السوفييت رؤوساً متعـددة على صواريخهم ـ تزيد على ما لدينا ـــ إلا إذا بنينا صواريخ أكثـر وأكبر حجماً. لذا كان يعود الأمر إلينا إذا كنـا نريد إغلاق الفجوة الرقمية. وطيلة أية فترة منظورة ستظل الولايات المتحدة تملك الأسبقية في عدد القاذفات الثقيلة.

المشكلـة التي تتعلـق بالمفاهيم في أية مفاوضات للحد من التسلـح أن نتيجتها تمثل لقطة واحدة في تـوازن تقنـي واستراتيجي يتطور بسرعة. وعلى الأطـراف أن تجد طريقة لالكي تأخـذ بالحسبان التوازن القائـم قـي القوات فحسب، بل وللمحافظة على العلاقة المتفق عليهـا طيلة فترة تحول فيها سباق التسلح من سباق كمي إلى سباق نوعي.

حتـى عام 1970 تقريباً كان سبـاق التسلح عددياً بالدرجة الأولى. وطالمـا أن كل صاروخ يحمل رأساً حربيـاً واحداً، فإن المعادلة الكمية بمقـدار 3 إلى واحد ستكون مطلوبة ولو نظرياً لمجابهة هجوم مفاجئ ناجـح. (وهـذه يفترض أن يخصص صاروخـان لكل قاذفـة صواريخ مـع الإبقاء على بعض الصواريخ كاحتيـاط لمهمـات متابعة). وهكذا فإن السوفييت يحتاجون إلى ثلاثـة آلاف صاروخ دقيق كي تتوفر لهم الثقة بتدمير قواعد صواريخنا، ونحن نحتاج إلى 4500 صاروخ لتدمير قواعدهم الأرضية. مثل هذه القوة لا يمكـن توفيرهـا إلا خلال فترة طويلة من الزمن ـ طويلة من أجـل توفير الرد المناسب ـ ويصعب توفير الموارد اللازمة لها. في بداية السبعينات كان الاتحاد السوفييتي يملك أقل من نصف العدد المطلوب من الصواريخ ذات الرأس الواحد، معظمها غير دقيق جداً.

التوصـل إلى صنـع الرؤوس المتعددة أحدث ثـورة في التوازن الاستراتيجـي. إذ أصبح من الممكن أن تتحقق الضربة الأولى. نظرياً على الأقل. بإضافة رؤوس حربية إلى الصواريخ الفردية الموجودة بدون زيادة عـدد منصـات القذف. وكانت بعض غواصاتنا القاذفة للصواريخ قادرة علـى حمل 14 رأساً حربياً صغيراً نسبيـاً (كل واحـد منها أكبر من القنبلتين اللتين دمرتا هيروشيمـا وناغازاكي). المشكلة أن كلا الطرفين كان قـادرا علـى تركيب 10 آلاف رأس حربـي على المنصات الموجودة القاذفـة للصواريخ (بالإضافة إلى أسطول من 500 قاذفة ثقيلة بالنسبة إلى أمريكا) وبالتالي كان هناك أسلحة أكثر من الأهداف المحتملة. وقـد ذكـر الجنرال جورج س. براون، الـذي كان رئيساً لهيئة الأركان المشتركـة، للرئيس فورد في اجتماع لمجلس الأمن القومي، في 7 ت1، 1974 أننا خفضنا عدد الصواريخ MIRV على منصات غواصاتنا بسبب قلة الأهداف. وإذا ما أصبح بالإمكان تخصيص عدة رؤوس حربية لكل منصة إطلاق لدى العدو، وما يزال هناك آلاف الرؤوس الحربية، فإن الضربة الأولى ضد قوات مرابطة على الأرض يمكن تصورها.

لـم يكن مـن دواعي الدهشة أن تتوقـف المحادثات في طريـق مسدود فجأة. فحتى فـي غياب وجود خلافـات أيديولوجيـة وجيو سياسيـة كان من الصعب عقلانيـاً وضع اقتراح يحسن مـن الوضع الناجم.

والأكثـر من ذلـك أنه نظراً لرفض الكونغرس الموافقـة على أسلحـة استراتيجية جديدة، فـإن الاتحاد السوفيتي لم يكن لديه دافع قوي للقبول بتقليص برامجه الاستراتيجية الهجومية.

فـي النهاية حققـت إدارة نيكسون بعض التفوق من خلال حقيقة ساخرة وهـي أن الزعماء السوفييت باتـوا أكثـر ثقة بالتقنية الأمريكية من بعض منتقدينا فـي الداخل. بدلاً من إلغاء اتفاقية SALT. كما كان يطالـب بعض المعارضين في الكونغرس. أثبت الدفاع بالصواريـخ البالاستية أنه المفتاح الذي يفتح باب وضـع القيود على الهجوم، كما فعل في عهد ريغـان قبل 15 سنة. كان الزعماء السوفييت يخشون أنه حتى لو كان الدفاع الصاروخي الأمريكي ليس فعالاً تماماً ضد هجوم شامل، فإنه يستطيع أن يرد حتماً بضربة انتقاميـة غيـر منظمة ممـا يتبقى من قوات أمريكية. كمـا أنه قد يجعل أي هجوم ابتـزازي محدود صعباً للغاية. ومما زاد من هذا الاحتمال خوف السوفييت من دفاع الجيل الأول.

إن المفاوضيـن السوفييـت، آملين أن يكون موقـف الكونغرس مناسباً لهم ـ وهـو أمر غير معقول في ظـروف تلـك الفترة ـ قد يصرون علـى أن أية اتفاقية ينبغـي أن تقتصر على تقليـص الأسلحة الدفاعية ـــ وهـي خدعة كلاسيكية مـن الكرملين لتجميـد الأسلحة التي يخشـون منها فيما يستمـرون بدون وضع قيـود على المئتـي صاروخ سوفييتي جديد التي تبنـى كل عام، وهو الأمر الذي يقلقنـا كثيراً. وكما أشرت سابقاً، فإن الجمود قد كسر أخيراً في أيار 1971بعد أن أصر نيكسون على القناة الخلفية وهي أنه لا يقبل أبـداً باتفاقيـة تقتصر على الأسلحة الدفاعية. بعد ذلك، ومع كثير مـن المحاحكات ـ معظمها من جانب السوفييت للتملص من القيود على الأسلحة الهجومية ـ تم التوقيع على اتفاقيتين عسكريتين بمناسبة قمة موسكو في أيار عام 1972.

مع أن الترتيبات الفنية كانت معقدة إلا أن المفهوم الشامل كان واضحاً بصورة كافية. أولاً، إنَّ اتفاقية دائمـة مـع بعض العبارات الغامضة قد حـددت موقعين في كل بلد للدفاع الصاروخـي البالاستيكي ـ وهو العـدد نفسـه الذي حدده لنا الكونغرس. وكان هذان الموقعـان قليلين جداً لتوفير دفاع قـاري. وثانياً إن اتفاقيـة مؤقتة تمتـد خمس سنوات من 1972 وحتـى 1977 تجمد انتشار الصواريـخ الهجومية بمستوياته الحاليـة. القاذفات الثقيلة لم يجر تحديدها مما يمكننا من نشر القاذفة ب ـ 1 المطورة حديثاً والخارقة لجـدار الصـوت، ولأن السوفييـت لم يكن لديهم قاذفـات بعيدة المدى عملياً كمـا لا يوجد لديهم برنامج لصنعها. خلال الفترة الفاصلة من المتأمل أن يجري التفاوض على اتفاقية أكثر شمولاً ودائمة.

فـي البدايـة قوبلت الاتفاقية بالاستحسان، ولكن مع مرور الوقت بـدأت الانتقادات تظهر. فقد توافقت خيبـات أمل الليبراليين فـي نيكسون مع عدم ثقة المحافظين في أي تعامل مـع الاتحاد السوفييتي. الجزء المتعلـق بالدفـاع الصاروخي من الاتفاقية بـدا غير مثير للجدل نسبياً في ذلـك الوقت، ومع هذا فقد كان يؤسفني أن انقساماتنا الداخلية كانت تُلزمنا على القبول بالتعرض للنقد كصفة دائمة في استراتيجيتنا.

ومـن دواعي دهشتنا أن النقد تركز على اتفاقية تجمد الانتشارات الهجومية والتي وضعت حداً للبناء الهجومـي السوفييتي لمائتي صاروخ سنوياً ولم تطلب من الولايات المتحدة أن تتخلى عن أي برنامج قائم أو يجري التخطيط له. وكان للانتقاد وجهان: إن الاتفاقية قد منحت تفوقاً عددياً للسوفييت، وأنها جعلت قواتنا الاستراتيجية عرضة لهجوم مفاجئ.

كلتا التهمتين كانت انعكاساً لحدة انقساماتنا الداخلية أكثر من أي تحليل موضوعي. فاللامساواة العدديـة في منصات الانطلاق لم تضمنها مفاوضاتنا حـول اتفاقية SALT (معاهدة الحد من التسلح الاستراتيجـي) بل قامـت من جانب رئيـس الأركان ووزيري الدفاع لإدارتي الطرفيـن قبل التفكير في مفاوضات (SALT). ولتوضيح الأمور فإن الولايات المتحدة توقفت عن بناء صواريخ إضافية لأن كبار خبرائهـا الدفاعيين كانوا على قناعة بأن البلاد لا تحتـاج إلى ما هو أكثر من ذلك. والاتفاقية المؤقتة (SALT-1) لعـام 1972 لـم تَصُغ ولم تعـدل هذه القناعة، والتي استمرت علـى مدى ثلاثة عقود منذ ذلـك الحين. حتى إدارة ريغـان الصقرية لم تسع إلى زيادة قواتنـا الصاروخية. ولكن مهما كان عدم التسـاوي في عـدد المنصات النووية فقد عُوّضـ بتفوق أمريكا بالرؤوس النوويـة المتعددة والقاذفات الثقيلة.

لـم يطلب البنتاغون أيـة زيادة في مجموع عدد الصواريخ مطلقاً. ولم تمتنـع أي من إدارة نيكسون أو فـورد عـن المصادقة أو تشجيع أي طلب من وزارة الدفاع من أجل زيـادة القوات الاستراتيجية الأمريكية قبل اتفاقية «سالت» أو بعدها. على العكس من ذلك فقد استخدمت إدارتا نيكسون وفورد اتفاقيات «سالت» لتبرير تحديث قواتنا الاستراتيجية ـ مما جعل السيناتور ستوارت سمينغتون يتذمر عندما قُدمت الاتفاقية إلـى لجنـة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ مُبدياً شكوكه فـي أن نستطيع مالياً إجراء اتفاقية للحد من التسلح أخرى.

إن التهمة التي تفيد أن الاتفاقية الهجومية المرحلية (سالت ـ 1) قد ضمنت مكاسب للسوفييت كانت مجرد ديماغوجيا. ففي شهر ت2 1974 (كما سنرى في الفصل العاشر)، لم يناقش فورد في فلاديفوستوك المستويـات المتكافئة التي كان يطالب بها هنـري جاكسون وأنصاره بصوت عال. رغم المنصات الألفين وخمسـ مئـة المسموح بها بموجب سقـوف فلاديفوستوك فقـد تمسك المخططـون الدفاعيون في جميع الإدارات المتعاقبـة بحـدود اتفاقيـة «سالت ـ 1». بعد ثـلاث إدارات كان المجموع لدينـا عملياً أقل قليلاً ممـا كان في عهد نيكسـون، وحتى إدارة ريغان الصقرية لم تعدله. والجـدول التالي يبين أنه بعد 20 سنة مـن الجدل حـول «عدم التكافؤ» فـإن معدلات القوتيـن الصاروخيتين ظلت كما هي عنـد توقيع الاتفاقية المرحلية، لا بل اتسعت «الفجوة الصاروخية» أكثر قليلاً:

	1972		1991	
	U.S.S.R.	U.S.	U.SS.R.	U.S.
منصات ICBM	1,451	1,000	1,618	1,000
منصات SLBM +	942	680	740	710
مجموعات منصات الصواريخ	2,393	1,608	2,358	1,710
القاذفات الثقيلة[2]	177	307	140	525
مجموعة المنصات الاستراتيجية	2,570	1,915	2,498	2,235
مجموعة الرؤوس الحربية الصاروخية	10,463	8,658	2,358	1,710

❖ صاروخ عابر القارات.

+ صواريخ بلاستيكية تطلق من غواصات.

++ تصل إلى 950 إذا ما نُسّقت.

الصواريخ العابرة للقارات القديمة وعددها 250

التهمة الثانية ضد سياسات الحد من التسلح لإدارة نيكسون ـ أنها أغرت السوفييت بالقيام بهجوم مفاجئ ـ كانت أيضاً عارية عن الصحة.

سيناريو الهجوم المفاجئ كان يجري كالتالي. بوضع عشرة رؤوس حربية على صواريخها الثلاثمائة، سيكون الاتحاد السوفييتي قادراً على تدمير جميع صواريخ أمريكا الألف الأرضية وربما ثلث غواصاتنا الحاملة للصواريخ في الميناء في أي وقت عندئذ يتبقى لدى الولايات المتحدة 450 غواصة قاذفة للصواريخ، وقوة القاذفات المتبقية بطاقة تتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رأس حربي، في حين أن القوة السوفييتية المتبقية يمكن أن تقترب من أربعة أمثال ذلك الرقم. في ظل هذه الشروط كان يُدّعى أن الرئيس الأمريكي سيكون مُكرهاً على سحب ما تبقى لديه من قوات رادعة والقبول بالشروط السوفييتية[3].

السيناريو منمق بعبارات تقنية من أجل أن يكون جديراً ظاهرياً بالتصديق. تفترض سيناريوهات التدمير المختلفة أن الزعماء السوفييت كانوا مستعدين للمخاطرة ببقاء مجتمعهم ونظامهم السياسي وفق عدد من المغامرات الجامحة:

❖ أن السوفييت كانوا قادرين فنياً على إطلاق بضع مئات من الصواريخ دفعة واحدة رغم أنهم لم يطلقوا تجريبياً أكثر من ثلاثة دفعة واحدة من مواقع اختبارية، وليس من صوامع عملية (وبعض أكثر السيناريوهات دراماتيكية تنبأت بأن السوفييت سوف يخلون مدنهم لتجنب ضربتنا المعاكسة في حين تبقى الولايات المتحدة سلبية).

obeikandl.com

- أن الأمريكيين لن يطلقوا تحذيراً رغم وجود ما بين 30 ـ 45 دقيقة ليقرروا ما إذا كان سيجري هجوم شامل.
- أن الصواريخ العملياتية السوفييتية تتمتع بدقة صواريخ الاختبار نفسها، وهو افتراض خطير في ضوء حقيقة أنهم في حالة هجوم مفاجئ سيضطرون إلى إطلاقها باتجاه شمال ـ جنوب في حين أن جميع التجارب (لدى الطرفين) تطلق باتجاه شرق ـ غرب لتجنب خلق انطباع بوجود هجوم مفاجئ مما سيستثير الانتقام (كان هذا بالطبع إشارة إلى مخاطر الاعتماد على الصدفة).
- أن الزعماء الشائخين لمجتمع هاجع لديهم ثقة كافية للمغامرة بأن الرئيس الأمريكي سوف يمتنع عن استخدام آلاف الرؤوس الحربية، مما سيجنبهم، حتى في أكثر السيناريوهات تشاؤماً، من هجوم مفاجئ.

أخيراً أي واحد من هذه السيناريوهات الافتراضية لن يكون محتملاً حتى بالنسبة إلى أكثر الزعماء السوفييت جنوناً، إلا بعد عقد من الزمن، أي بعد انتهاء معاهدة SALT1 «سالت ـ 1»، أو ما يكفي من الوقت أو أكثر لاتخاذ إجراءات معاكسة. وهذه تتضمن زيادة القوات الأمريكية الباقية بوضع مزيد من الرؤوس الحربية على الصواريخ الموجودة، وتطوير صاروخ أكبر يحمل مزيداً من الرؤوس الحربية والقوة التدميرية الأكبر، أو بناء أسلحة جديدة ذات مواصفات مختلفة تماماً غير ممددة في اتفاقية SALT1 «سالت ـ 1»، مثل صواريخ كروز. وهناك أيضاً خيار الصاروخ الدفاعي. باستثناء الصاروخ الدفاعي الذي منعه الكونغرس. جميع هذه الخطا قد اتخذت أو بوشر بها في عهد إدارة نيكسون وطُورت في عهد فورد قبل انتهاء موعد «سالت ـ1».

لا عجب أن العسكريين المحترفين لم يصادقوا على مثل هذه السيناريوهات الخرفاء. ما فكروا به أن التوازن الاستراتيجي قد عبر عنه حرفياً رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال جورج براون، أما السيناتور وليام بروكسماير عام 1977 بعد فترة قصيرة من مغادرة فورد لكرسي الرئاسة:

> لا توافق هيئة رؤساء الأركان المشتركة على أن الاتحاد السوفييتي قد حقق تفوقاً عسكرياً على الولايات المتحدة.. (القوات الاستراتيجية الأمريكية) تعتبر قادرة على تحقيق أهداف الولايات المتحدة اليوم[4].

بالتركيز على خطر منفرد وبعيد من قبل هنري جاكسون وحلفائه من المحافظين الجدد نجحوا في حرف الجدل الداخلي عن مشكلة أمريكا الأمنية الفعلية في السبعينات، والتي لم تكن هجوماً شاملاً نووياً على الولايات المتحدة، بل كانت بالأحرى أن الجمود الاستراتيجي القائم يمكن أن يُغري الاتحاد السوفييتي باستغلال تفوقه بالأسلحة التقليدية لتحقيق تجاوز جيوسياسي أو ابتزاز. مراقبة التسلح الاستراتيجي ينبغي أن تعامل كمكوّن للاستراتيجية القومية الشاملة. ومع هذا فإن الليبراليين يتمسكون

بمراقبة التسلح كشفاء لجميع العلل، فيما كان يتخيل المحافظون أن اتفاقية «سالت ـ 1» هي سبب وليست نتيجة لقراراتنا الفردية لتدبير الأمور على مدى أكثر من عقد من الزمن.

التكافؤ الاستراتيجي الحقيقي أعطى الولايات المتحدة في الواقع طاقة أكبر من السوفييت على تنفيذ سيناريوهات الفناء. فحتى ضمن شروط «سالت ـ 1» كانت القوات الاستراتيجية السوفييتية أكثر عرضة بكثير لضربة أمريكية أولى من قرينتها الأمريكية. ذلك لأن 30% فقط من القوات الاستراتيجية الأمريكية متوضعة على الأرض، في حين أن 90% من القوات السوفييتية متوضعة على الأرض. كما أن الغواصات الأمريكية القاذفة للصواريخ كانت أكثر فعالية بكثير من الغواصات السوفييتية. وبالدمج الصحيح ما بين صواريخ MX وصواريخ مينيوتيمان 3، تستطيع الولايات المتحدة أن تجعل القوات الأرضية السوفييتية عرضة للهجوم مثل مدننا نظراً لتفوق قواتنا الاستراتيجية وما تستطيع أن تلحقه من أضرار جسيمة بالقوات الاستراتيجية السوفييتية. لم يقترح أحداً ممن جاؤوا بعدنا مثل هذا الدمج.

وهكذا مع مغادرة نيكسون للإدارة، تحولت المناقشات حول مراقبة التسلح إلى مناقشة سفسطائية لا أرضية لها. كان «الانفراج» يتعرض للهجوم من قبل الليبراليين لتركيزه على الأمن العسكري، ومن قبل المحافظين لأنه لا يرتبط بهذا الأمن بصورة سليمة، ومن قبل الليبراليين للاتزان الضئيل بمراقبة الأسلحة، ومن قبل المحافظين لاهتمامه الزائد. كانت البرامج الدفاعية تمر في الكونغرس بمساعدة المحافظين للتغلب على معارضة الليبراليين. ويستحق جاكسون ومؤيدوه كثيراً من الجدارة لكبح الهجوم ضد حرب فيتنام بحجة الدفاع القومي. ولكنهم كانوا متأرجحين ضد سياسة أمريكا تجاه السوفييت.

هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي

لم تكن الهجرة من الاتحاد السوفييتي أبداً سياسة خارجية أو قضية داخلية إلى أن طرحتها إدارة نيكسون في الحوار السوفييتي ـ الأمريكي. بُحثت الهجرة اليهودية أولاً مع السفير السوفييتي أناتولي دوبرينين عام 1969. أبقيت معالجتي للموضوع ضمن إطار معتدل ذلك أن هذا الموضوع لم يكن قد أُثير إلا من قبل مجموعات يهودية خاصة. أشرت ملفتاً النظر إلى العدد الضئيل الذي سمح له بالمغادرة عام 1968 ـ كان أقل من 400 شخص ـ وأوضحت أن أية زيادة ستلحظها الإدارة سيكون لها تأثير جيد لتقييمنا للنوايا السوفييتية. ومن دواعي دهشتنا أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي نمت بالتدريج بمقدار مائة مرة في خمس سنوات، من 400 مهاجر عام 1968 إلى ما يقارب 35 ألف مهاجر عام 1973.

ولكي تضمن التوجه الإيجابي في استمرارية الهجرة لم تعلن إدارة نيكسون تأكيداً علنياً، حتى أثناء حملة الرئاسة الانتخابية عام 1972، وهكذا وجدنا أنفسنا في وضع سيء عندما اختطف جاكسون فجأة سياستنا.

مـا أثـار حفيظـة جاكسـون كان قـرار الكرملين فـي آب 1972 بفرض «ضريبة خـروج» على جميع المهاجرين، على افتراض أن هذه الضريبة ستعوض الدولة السوفييتية عما أنفقته على تعليم المهاجرين. وكانـت النتيجـة العملية هي انخفاض كبيـر في أعداد المهاجرين. لم يتبين بوضـوح لماذا اختار الاتحاد السوفييتـي أن يخاطـر بالنية الأمريكية الطيبة عند ذلـك المستوى الرفيع من علاقـات الشرق والغرب. يدعـي دوبرينيـن ـ بأن القرار اتخذ على مستوى رسمي متوسط الدرجة ـــ ولكنه ادعاء غير صحيح نظراً لطبيعـة النظام الشيوعـي المركزي والالزامي، والاهتمام الذي أبداه نيكسـون وإدارته في هذا الموضوع. الأكثـر احتمـالاً أن الزعماء السوفييت الكبار الذين هزتهم خيبة أملهـم بالرئيس المصري أنور السادات نتيجة لقمة 1972 وطرده للمستشارين السوفييت انتقاماً، كانوا يحاولون تجنب اتهام إضافي بأن تساهلهم في هجرة اليهود كان يعزز إسرائيل تاكتيكياً (حيث كان معظم المهاجرين يقيمون).

ومهمـا كان التفسيـر فإن ضريبة الخـروج أطلقت العنان لهجوم على سياسـة ناجحة عندما كنا ندير الأمـور بدون جعجعة طيلـة أربع سنوات وبطريقة غير سياسية متعمـدة. دورة إطلاق الهجوم كانت معلقة بموافقـة مجلس الشيـوخ عام 1972 علـى اتفاقية منح الاتحـاد السوفييتي مركز الدولـة الأولى بالرعاية مقابل دفع موسكو ديوناً للتأجير والإعارة تعود إلى الحرب العالمية الثانية. الوصول إلى منح الدولة الأولى بالرعايـة MNF كان يُلـح علينا ويستحثنـا منذ الأيام الأولـى لإدارة نيكسون ولا سيما مـن جانب أعضاء الكونغرس الليبراليين والشيوخ، ووسائل الإعلام.

فـي الجو المشحون جـداً بعد فيتنام ووترغيت بدت عبارة «الدولة الأولى بالرعاية» محرقة لأنها كانت توحـي بنـوع من المحاباة الخاصة للاتحاد السوفييتي (بعد عشرين سنة أُثير الموضوع نفسه بالنسبة إلى الصيـن) والحـق أن عبارة الدولة الأولى بالرعاية هي عبارة فنية تعني أن بلداً ما منح المعاملة ذاتها التي تُمنـح إلـى باقي الدول التـي تقيم معها الولايات المتحـدة علاقات تجارية طبيعيـة (وكان هناك ما يزيد على100 دولة من هذه الدول عام 1974، وحوالي 160 دولة عند كتابة هذه السطور).

مـا أبقى الاتحـاد السوفييتي خارج الحصول على هذا الوضع (الأولـى بالرعاية) قبل ذلك هو رفضه إعـادة دفع ديـون الحرب. وفي أيلول عـام 1972 أجرى وزير التجـارة بيتر ج. بيترسـون مفاوضات أنهت المشكلتيـن. ونظراً لتخلـف الصناعة السوفييتية فإن وضع الدولة الأولـى بالرعاية ما كان يتوقع أن يؤدي إلى زيادة مهمة في التجارة السوفييتية ـ الأمريكية. وكانت فائدتها الوحيدة فائدة نفسية، كرمز للمساواة بالنسبة للقادة السوفييت، الذين رغم ادعائهم أنهم طليعة التاريخ، كان يستحوذ عليهم الخوف بأنهم لم يحصلوا على المركز الملائم المناسب لهم.

اتفاقيـة «الدولة الأولى بالرعاية» أعطت السيناتور جاكسون أداة تشريعية لتصعيد الأمور. ففي 4ت1، 1972 عرضـ تعديلاً لإجـراء تجديد لسلطة التفاوض للرئيس حول التجـارة. كان تعديل جاكسون يحجب

وضع الدولة الأولى بالرعاية عن أية دولة شيوعية تحول دون الهجرة. وعندما قدم نيكسون إلى الكونغرس، في 10 نيسان 1973 تسوية قضية «الإعارة والتأجير» بالإضافة إلى منح مركز «الدولة الأولى بالرعاية» للاتحاد السوفييتي اشتبكت المعركة.

كنا مقتنعين أن المسألة ستسوى بسرعة وبطريقة ودية، لأننا كنا ما نزال نعتبر جاكسون حليفاً ونعالج خلافاتنا معه بأسلوب تاكتيكي. وهذا ما جعلنا في البداية نتساهل معه ونسعى إلى تغيير موقفه بإقناع السوفييت بإلغاء ضريبة الخروج. وبعد عدة مناقشات بيني وبين دوبرينين، سلمت السفارة السوفييتية في 30 آذار 1973 مذكرة إلى مكتبي معنونة: «سرية خاصة بالرئيس». ومع أنها تصف الهجرة كمسألة سوفييتية خاصة إلا أن الكرملين أعلم نيكسون أنه من الآن فصاعداً فإن ضريبة الخروج سوف لن ترفع إلا في حالات «غير عادية» فقط، بما في ذلك أمن الدولة، وفي الحالات الأخرى سوف تجمع رسوم «غير باهظة».

أظهر ردنا إلى أي مدى نجح جاكسون في تحويل هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي إلى مسألة أمريكية داخلية. طلبنا من موسكو أن نعلم الكونغرس بالرسالة وكذلك الحكومة الاسرائيلية. ولكنها احتجت بقوة لأن إسرائيل لاعلاقة لها بهجرة اليهود السوفييت وإجراءاتها ومع هذا فإن الكرملين سيترك للرئيس حرية أن يقرر كيف نستخدم اتصالنا ومن يريد أن يخبره عن مضمونها. كنا نظن أننا أحرار في شؤوننا الداخلية.

في 18 نيسان تبخرت آمالنا حول أهداف جاكسون فذلك التاريخ كان الحد الفاصل لمعارضته المكشوفة والعدوانية لسياستنا. دعا نيكسون قادة الكونغرس إلى اجتماع في «غرفة روزفيلت» في البيت الأبيض لإعلامهم بالاتصال السوفييتي. كنا نعتقد أن الإطلاع سوف ينهي المشكلة، أو يحقق بعض الاعتراف بما اعتبرناه انقلاباً دبلوماسياً.

يبدو أن جاكسون فقد اهتمامه بالمسألة الفورية لضريبة الخروج، ولم يكن بصدد إثارتها. رد السوفييت بأن الرد البارد للسيناتور غير ملائم. من أجل الحصول على حق الدولة الأولى بالرعاية ينبغي أن يضمن الاتحاد السوفييتي الحد الأدنى من تأشيرات الخروج ويخفف القيود على الهجرة لجميع القوميات. لم يحدد جاكسون ما هو الحد الأدنى في رأيه، ولكن من الواضح أنه سيكون أكبر بكثير من الرقم السابق وهو 35 ألف مهاجر سُمح لهم بالمغادرة عام 1973 .

مطالبة جاكسون بإضافة شروط إلى اتفاقية موقعة قبل بموجبها السوفييت شروطنا الثابتة (إعادة دفع ديون الإعارة والتأجير) كانت بمثابة دعوة للمواجهة. وقد رتب ذلك جاكسون في وقت كانت فيه إدارة نيكسون في انحدار ظاهر. ذلك أنه كان الأسبوع الذي ذهب فيه جون دين إلى المدعي العام وانفجرت فضيحة ووترغيت في وجه نيكسون.

مـا كان بالإمكان ثني السيناتور عن ثني قضية تناسب طموحاته الرئاسية. بدا جاكسون داخل الحلقة المـدورة ممارساً ماهراً للتاكتيك ورجل مبادئ محترماً. ولكن مـن أجل أن يضمن ترشيح الديمقراطيين بعـد ثـلاث سنوات مـن الآن، كان عليـه أن يجد طريقة لكسـب الانتخابـات الأولية للحزب فـي نيويورك وكاليفورنيـا، وهـذا ما أرغمه علـى أن يخفف من صورتـه الصقرية بالتقرب من الجنـاح الليبرالي الذي تزداد هيمنته في حزبه.

في مواجهة الأخبار التلفازية يومياً عن ووترغيت شعر نيكسون بضعف متزايد تجاه جاكسون وحلفائه. أُرجئت الاتفاقية التجارية إلى النصف الأول من عام 1973 ثم إلى الخريف بسبب التوترات ما بين الشرق والغرب الناجمة عن حرب الشرق الأوسط. لذا لم نلتق أنا وجاكسون حتى 6 آذار، 1974، لنرى إذا ما كان بالإمكان التوصل إلى تسوية ما.

فـي ذلك الوقت كان نيكسون في طريقه إلى مواجهة الاتهام، ولم يكن لدى جاكسون أي دافع لتخفيف الضغـط علـى الرئيس عن طريق عقد اتفاق. الحوار مع الأطرش كان مستحيلاً. ولم يُجْدِ ما قلته للزعماء اليهود مراراً إنني لن أعترض إذا قبل جاكسون أية تعديلات في إجراءات الهجرة السوفييتية[5].

في ذلك الوقت كان جاكسون قد رفع من أهمية قضية الهجرة إلى المستوى الرمزي. كان مصمماً على استغلالهـا ليظهر أن معالجة إدارة نيكسون لمجمل علاقـات الشرق والغرب كانت خاطئة تماماً من حيث المفهـوم والأسلـوب. والصدام العلني مع الرئيـس ووزير الخارجية سيسمح لـه أن يُظهر بأن من الممكن الحصـول على تنازلات أكبر عن طريق المجابهة أكثر مما يمكن تحقيقه عن طريق الدبلوماسية. وتعززت قـوة جاكسون بشـكل كبير عندما نشر اندريه زاخـاروف، العالم السوفييتي البـارز وبطل حقوق الإنسان، رسالة تعزز موقف جاكسون.

كان لقائـي الأول مـع جاكسـون استطلاعياً. في اللقـاء الثاني فـي 15 آذار، بدأ يكشـف أوراقه. كان السيناتـور يطالب بتعهـد سوفييتي خطي بأنه سيسمح لمئة ألف مهاجر بالمغـادرة سنوياً (وهو رقم يزيد بثـلاث مرات على الرقم الأعلـى الذي سُمح بأن يغادر). رأى جاكسـون أن الرقم قد تسرب، مما يجعلني أن أظهـر بمظهـر إما الضعيف جداً عن السير قدماً أو العاجز عـن تحقيقه. ولامني أنصار جاكسون على التسريـب. رغـم أنه لم يكن لدي أي حافز للمناورة بإظهار عجزي هكذا. ولكي يؤكد قدرته على المناورة، بالإضافة إلى الرقم المبالغ فيه، رفض جاكسون أن يكون وضع «الدولة الأكثر رعاية» مضموناً حتى لو قبلنا بهـذه النسبة من المهاجريـن. وبالإضافة إلى ذلك قال إن مثل هذا التنازل قد يسمح له بأن «يعيد» النظر في «احتمال» تسوية. المشكلة أنه كان لديه مطالب أخرى في جيبه.

كان الشَرَك ـ 22 منصوباً بعناية لنيكسون، ولي، في هذه المرحلة من ضعف الرئيس. كانت المساومة مـاء الحيـاة بالنسبة للسيناتور، ولم يكن هناك إلا أمل ضئيل فـي تأييد الكونغرس ما لم أُظهر الرغبة في

الكشـف عن مقترحات جاكسـون. ولكن إذا قبلت بالأرقـام والمطالبة بضمانة سوفييتيـة موقعة أكون قد دمرت بآفاق اتفاقية مع السوفييت حول هذا الموضوع أو أي موضوع آخر.

وفـي محاولة للخروج من هذه الأزمة، وعدت السيناتـور جاكوب جافيتس من نيويورك ـ ربما من دون تعقـل ـ وإبراهام ريبيكوف من كونيتيكوت، الذي شكّل فريق مجلـس الشيوخ التفاوضي برئاسة جاكسون، أن أحاول إيجاد سبيل للالتفاف على الرفض السوفييتي لإخضاع ممارساتهم الداخلية لتدقيق الكونغرس. وأثناء زيارتي لموسكو التي امتدت من 24ـ 28 آذار 1974 اقترحت الشروع بحوار مع وزير الخارجية أندريه غروميكـو لاستنباط تعريف لإجراءات الهجـرة السوفييتية التي كان بيان بريجينيف في العام الماضي قد أشـار إليه. عندئذ سـوف أسعى إلى ترجمة هذه إلـى زيادة في الرقم الإجمالـي للمهاجرين وأنقل فهمي للنوايـا السوفييتية فـي رسالة إلى الشيوخ. بهـذه الطريقة سيكون السوفييت قادريـن على تجنب إخضاع إجـراءات الهجرة لديهم رسمياً لمراقبة الكونغرس، في حين أن الكونغرس سـوف يتلقى التأكيدات التي يريدها.

كانـت صيغة بارعـة ويمكن أن تنجح إذا توفـرت الرغبة لدى أعضاء مجلس الشيـوخ بإنقاذ ماء وجه السوفييـت. ولكن مـن أجل التأثير في جمهور الناخبيـن كان على الشيوخ أن يظهـروا أنهم نجحوا في أن ينتزعـوا مـن القادة السوفييت الرافضيـن وضمانات الإدارة «الرقيقة» التي مـا كان يمكن تمديدها بدون ضغطهم.

هـذا الموقف من شأنه أن يجهض الخطة الأوسـع، لأن السوفييت لا يمكن أن يوافقوا على حق للهجرة يحدده الكونغرس، لقد تساهلوا معنا كي يضمنوا بالدرجة الأولى النية الأمريكية في ميادين أخرى. لذلك فـإن تسويتـي بأن نوصل فهم الإدارة للنوايا السوفييتية إلـى الكونغرس قد أوصلتنا إلى خلاف لا نهاية له. فالكونغرس يفسـر اتصالنا بدون شك على أنه التزام في حيـن أن الزعماء السوفييت سوف يرفضون أي ادعاء بأنهم تعهدوا بالتزام شرعي.

إصـرار الشيوخ علـى أن يتجدد مركز الدولة الأكثر رعاية MFN للسوفييـت سنوياً من شأنه أن يجعل الإدارة رهينة دائماً. فمع كل تجديد، يمكن أن تثار مطالب جديدة سرعان ما سيتبين أنها أكثر مما تتحمله المقايضـة. عند هذه النقطة سوف تتهـم الإدارة بالتأكيد بالخداع أو الضعف، لا سيما وأن التجديد الأول الـذي سيجري في انتخابـات 1976، وأولوية نيويورك، الحاسم بالنسبة لجاكسـون قد اقترب. إن الشيوخ والإدارة إذا مـا عمـلا معاً يستطيعـان أن يحققا تحسينات مهمة في أرقام الهجـرة السوفييتية التي كانت تتحسـن بصورة درامية. أمـا المجابهة فلن تحقق أية فائدة ملموسة، ومن شأنها ألا تقلص الهجرة فقط، بـل وجميـع الإنجازات الممكن تصورها فـي أربع سنوات مـن الصبر، في كل دبلوماسيـة الشرق ـ الغرب الناجحـة. لبضعـة أسابيـع بدت خطتي واعدة. ففـي لقاء في موسكو في آذار ثـم ثانية في جنيف في

شهـر نيسـان 1974 مع غروميكو، الذي لم يكـن متحمساً ولكنه أعاد تأكيـد بريجينيف بعدم وضع عقبات قانونية أمام هجرة اليهود، ولن يتعرض المتقدمون بطلب الهجرة إلى أية مضايقات، وأن المجموع سيكون متناسباً مع عدد المتقدمين بالطلبات. وأوضح تأكيد بريجينف بأن الرفض لن يزيد على 1,6 % .

وافـق غروميكـو بصعوبة على أن يكون الرقم 45 ألفاً ـ أي بزيادة مقدارها 25% عن المستوى الأعلى السابق ـ وكان هذا اقتراحاً معقولاً. وأضاف بطريقة ساخرة أن الحكومة السوفييتية لا يمكن أن تقدم على إرغام مواطنيها على الهجرة من أجل أن ترضي الكونغرس الأمريكي.

هـذه الأرقـام قوبلت بـازدراء من قبل جاكسـون وتابعيه. واستمـر ريتشارد بيرل بالإصـرار على كوتا (حصـة) سنويـة مقدراها مئـة ألف مهاجر سنوياً، وعرض جاكسون الأمر ـ ببراعة ـ أن الاقتراح كان «هدفاً» وليس شرطاً مسبقاً. وبعد فترة تبين أنه كان يعني بكلمة «هدف» معنى «التسوية» أي حوالي 75 ألفاً، أو أكثر بمقدار مرتين عن رقم الحد الأقصى لمن يمنحون التأشيرة. وفيما كان الجانب الأمريكي يتحاور مـع نفسـه كما لو كان باستطاعتنـا أن نقرر مستوى الهجـرة السوفييتية، بدأ العـدد الحقيقي للمهاجرين يتضاءل بمقدار النصف كل سنة ونحن نتجادل حول تعديل جاكسون.

مـع هـذا فإن السيناتور الذي لا يلين ظل يطرح مطالب جديـدة. فقد طالب جاكسون بأن تمنح سمات الخروج كأفضلية للمهاجرين الذين يودون المهاجرة، من الأقاليم ذات المستوى التعليمي الأدنى، وسمات أقـل لسكان النخبة المثقفة في موسكو. هـذه «المماحكة» ينبغي أن تنتهي كما قال جاكسون كشرط مسبق لمنـح حق الدولـة الأكثر رعاية. جمـع جافتيس أصـوات أغلبية الشيوخ حـول: إن الفكـرة أن يعود الوزير ويتفاوض أكثر. المهمة كانت نفسها ـ تنفيذ اتفاقية موقعة من قبل وزير التجارة الأمريكي، وعلى أن يزيد بمقدار ثلاث مرات الهجرة السوفييتية من أعلى مستوى وصلت إليه وأصف التوزيع الجغرافي للمهاجرين، في المقابل يلقى الاتحاد السوفييتي المعاملة التجارية نفسها التي يتمتع بها بدون شروط مع أكثر من مائة دولة، ولكن خلافاً لذلك أن يكون موضوعاً لمراجعة سنوية من الكونغرس.

مـن أجل إغلاق أية فرجـة متبقية من أجل تحسين العلاقات التجارية مـع السوفييت، شرع جاكسون فـي وضع القيود على القروض والتجـارة. وفي 30 حزيران، 1974، كانت صلاحيـة الرئيس في استخدام تسهيـلات «مصـرف التصدير والاستيراد» تحتاج إلى تجديد مع أنها تجدد مرتين في السنة بدون خلاف طـوال عقدين من الزمن. وقد استغل جاكسون والشيخ الموالي له، الديموقراطي أولاي ستيفنسون الثالث مـن ايلينـوي، لوضع قفل مـزدوج على علاقات الشـرق ـ الغـرب الاقتصادية بطرح تعديـل جديد تماماً. ومـع أن ستيفنسـون كان يرعى التعديـل شكلياً فقد منح جاكسـون مصداقية علنية. جعـل التعديل جميع قروض الصادرات ـ الواردات إلى الاتحاد السوفييتي تزيد على 50 مليون دولار عرضة لموافقة الكونغرس ووضـع سقفـاً مقداره 300 مليـون دولار لمجمل جميع الديـون للاتحاد السوفييتي، مـع جاكسون وحلفائه

الذين يقلصون بانتظـام المرونة الرئاسية في دبلوماسية الشرق والغرب، أصبحت العلاقات الاقتصادية الأمريكيـة. السوفييتيـة بعـد سنتين من التعاون بيـن البلدين أسوأ مما كانت عليه فـي أي وقت مضى من فترات الحرب الباردة.

أصبح موضوع الهجرة السوفييتية الآن مرتبطاً مع مصير نيكسون. وفي نهاية حزيران عام 1974 غادر إلى لقاء القمة الأخير مع بريجينيف. كما أن رحلته إلى موسكو كانت آخر رحلة خارجية له كرئيس. ومع أن الرئيـس لم يكن ليستغل الزيارة لأيـة أغراض سياسية داخلية، فإن جاكسون صرح قبل يومين من مغادرة الرئيـس أنه سيضـع مجموعة من الشروط الأخرى بالنسبة إلى الهجرة السوفييتية. ولم يحدد ما هي تلك الشـروط، ولكن مجرد الإعـلان عن ذلك كان كفيلاً بوضع نهاية للجهود الرامية إلى تسوية قضية الهجرة السوفييتية إلى أن استقال نيكسون بعد خمسة أسابيع.

فـي نهايـة رئاسـة نيكسون كانـت سياسـتـه الشرق. غرب محـل انتقـاد مستمر تقريبـاً. كانت هناك استراتيجية متسمة بالمبالغة الحمقاء ضد رئيس يواجه الاتهام بالتقصير أولاً ثم ضد رئيس غير منتخب فـي لحظة كانت فيها الولايـات المتحدة منقسمة بعمق، والكونغرس المعـادي يحد من صلاحياته لاتخاذ أي عمـل عسكـري ويهاجـم كل منظومة تسلح جديـدة. كانت مسؤوليـة ثقيلة لوضع مثل هـذا العبء على أكتـاف رئيس جديد سعـى أكثر من الجميع إلى إعادة بناء الثقة فيما يواجه كثيراً من الأزمات في الداخل والخارج.

obeikandl.com